بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 48 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:26\09\2023 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

وصل الكلام إلى الآية الخامسة عشر، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَواريرَا﴾.

ما زال الحديث فيما أعدّه الله سبحانه وتعالى للأبرار الذين تحدثنا عنهم في صدر هذه الآيات الشريفة في هذه السورة المباركة. وبيّن أنواعاً من النعم، بعض تلك النعم يرتبط بالمسكن، بعض تلك النعم يرتبط بالجو الحاكم على مكان استقرارها ﴿لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً وَلا زَمْهَريرا﴾، بعض تلك يتعلق بمكان سكنهم، وكيف هُيئ لهم.

جاءت هذه الآية المباركة لتبين التنعم الذي يعطى لهؤلاء مما يرتبط بأشربتهم، فقالت الآية ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وعبرت الآية بالفعل المضارع انسجاماً وتناسقاً مع ما تقدم في صدر الآيات كما في الآية الخامسة عندما قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُون﴾ هناك ذكر مشربهم على نحو الإجمال، وهنا أراد التفصيل. فعطفاً على ما تقدم -أيضاً- استعمل الفعل المضارع للتدليل على أن هذه النعمة نعمة متجددة لهم، لا أنها تحصل مرة واحدة وتنتهي.

وأما مادة الفعل -الطواف- الذي بمعنى تكرار المرور على الشيء، فيستفاد منه وجود جماعة، لا أنه فرد، فهؤلاء الأبرار يتسامرون مع بعضهم البعض، لهم مجالس مشتركة حتى يصدق ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ أما لو كان كل واحد منفرد لوحده، لقال يسقى ويعطى وما شابه ذلك. استعمال هذا الفعل يدل على أن هؤلاء كما كانوا في الدنيا منسجمين مترابطين هم كذلك في الآخرة، لهم مجالس للأنس والسمر والترفيه والتنعم.

لكن غاية الأمر كما ذكرنا مراراً نِعمُ الآخرة تشترك مع نِعمِ الدنيا بمجرد الاسم، وإلا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

﴿ويُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ﴾ هنا مجموعة من النقاط ينبغي أن تبحث في هذه الآية الكريمة:

النقطة الأولى: أن هذه الآية لها مشابهات في الكريم، فمثلاً في سورة الصافات الآية 45 يقول: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[1] وفي سورة الزخرف ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفيها ما تَشْتَهيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فيها خالِدُون﴾[2].

من هنا يطرأ على الذهن التساؤل التالي: أنه في هذه الآية الأخيرة -التي ذكرتها- بينت أن الصحاف والآنية[3] التي تحمل فيها الأكواب من ذهب، وأكواب من ذهب. ونعرف أن معدن الذهب أرفع شأناً من معدن الفضة، والعرف على ذلك. فهل هؤلاء الأبرار الذين نتحدث عنهم في سورة الإنسان أقل شأناً وأقل منزلة حتى يطاف عليهم بآنية وأكواب من فضة أو ما هي النكتة في ذلك؟

البعض من علماء التفسير حتى يجيب عن هذا الإشكال التزم بالحذف والتقدير في كلا الآيتين. ففي آية الذهب نقدر من فضة، وفي آية الفضة نقدر من ذهب. لكن هذا على طريقة إرادة الجواب عن الإشكال بأي طريقة ممكنة سواء كانت هذه الطريقة الممكنة هي ظاهرة من الكلام أو غير ظاهرة من الكلام، هذا لا يقبل. فظاهر الكلام أنه لا يوجد حذف وتقدير.

أجاب مثل الفخر الرازي، هذا تنوع، ولا يدل على اختلاف المنزلة، في بعض الأحيان يطاف عليهم بآنية من ذهب، وفي بعض الأحيان يطاف عليهم بآنية من فضة. فهذا نوع من التنوع.

لكن الذي يأتي إلى الذهن، إلى أنه لا ينبغي أن ننظر إلى الكلمات في مقام التفسير منفصلة عن سياقها داخل النظم المتكامل. في هذه الآية -التي نحن بصدد عنها- هناك صورة جميلة يريد أن ينقلها لنا القرآن الكريم، هذه الأقداح وهذه الآنية والأكواب يريد أن يشبهها لصفائها بالقوارير، هي من معدن،

---

[1] الصافات: 45
[2] الزخرف: 71
[3] بالتعبير العرفي الصينية.

لكن لخلوصها وصفائها ونقائها تظنها زجاجة. هذا المعنى وهذه الصورة الإجمالية لا تتناسب مع الذهب، الذهب عند العرب لا يشبه بالقوارير، الذهب يشبه بالأصيل، يشبه بأشعة الشمس، يشبه به سنابل القمح، لا بالقوارير الشفافة النقية الصافية، الذي يشبه بذلك هو اللجين والفضة.

إذاً هذه الصورة الجميلة، وهذا المجموع ما كان ليتأتى إلى الذهن لو غير المادة. وحينئذ يتم ما ذكره الفخر الرازي، وهو أنه لا مانع من أن المتنعمين من الأبرار في الجنة تارة يطاف عليهم بآنية من ذهب وأخرى يطاف عليهم بآنية من فضة. وهذا في القرآن متعدد، ففي جملة من الآيات القرآنية هناك تعدد في بيان النعم، كما هناك تعدد في بيان أنواع العذاب، ولا ينفرد بهذا الشيء.

وهذه السورة مما يتلذذ به المتنعم، لا أنه فقط يتلذذ بمادة الكوب، مثل الرسمة التي ترسم وتضع فيها بعض الأحيان شيئاً رخيص الثمن، لكن هذا الشيء رخيص الثمن الذي أدخل وأقحم في هذه الرسمة أعطاها لوحة فنية جميلة، ولو غُيّر إلى مادة أخرى لا تعطي هذه اللوحة الجميلة.

التنعم بتمام هذه الصورة وهذه المشهدية التي يريد أن يحاكيها لنا القرآن الكريم.

النقطة الثانية: الفرق بين الآنية والأكواب

الآنية جمع إناء، والإناء هو الشيء الواسع الذي يمكن أن يحمل عليه الشراب تارة والطعام تارة أخرى. فالآنية ليست مختصة بالشراب، بل يوضع عليها الطعام.

الأكواب التي لا عروة لها ولا خرطوم، هذا الذي نستعمله في العرف. فكأن الأكواب توضع على الآنية، ويطاف بها عليهم.

من هنا يأتي إلى الذهن هذا السؤال: هل الآية بصدد بيان الطعام والشراب وفي مقام بيان التنعم الذي في هذه الآية؟

البعض قال: نعم؛ باعتبار أن الآنية تستعمل للطعام والشراب، والأكواب تستعمل للشراب. فإذاً يريد أن يقول: يطاف عليهم بطعام وشراب.

لكن الظاهر بقرينة المقابلة أن هذه النعمة المذكورة في هذه الآية مختصة بالشراب، وأن الآنية إنما هي آنية لحمل أكواب الشراب عليها، لا أنه وضع عليها طعام ووضع عليها شراب؛ وذلك لأنه تقدم حديث عن الطعام، فتكون هذه الآية المباركة مختصة بإفادة الشراب.

بقية البحث يأتي. والحمد لله رب العالمين